

النصار

الأحد 28 شباط 2010 - السنة 77 - العدد 23972

الشغف الفردي بالموسيقى والأغاني القديمة يتحول مؤسسة حديثة لجمع المندثر والنادر

تروي هذه الأسطر قصة شغف بالموسيقى والاغاني العربية القديمة، وكيف حول الراوي شغفه هذا مؤسسة حديثة ومتخصصة لجمع تراث عصر النهضة العربية في الموسيقى والغناء في مصر وبلاد الشام ما بين مطلع القرن العشرين وثلاثيناته.

-1-

منذ طفولتي أخذني شغف بالموسيقى والغناء، من دون تفضيل نوع منهما على آخر. فأنا المولود في العام 1948، من جبل الراديو، ووحيداً كنت أكثر الاستماع من الاذاعات الى ليلي مراد وعبد الوهاب وأحب صوتهما وأغانيهما، ثم تعلقت بأم كلثوم. لا أحد في أسرتي كان يميل هذا الميل. فأهلي كانوا يحبون فيروز وأغانيها، من دون تعلق استثنائي بالموسيقى والاغاني، على خلاف تعلقي وشغفي الشخصي والفرديين بهما، من دون أن تكون كلمات الاغاني - التي لم أكن أفهمها بعد في تلك السن بين السادسة والسابعة - هي جاذبي الى الاستماع، بل صوت المغني أو المغنية ولحن الاغاني.

-2-

في السادسة عشرة من عمري اكتشفت الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وأسرفت في الاستماع اليها، كأني أستمع الى تراث تراكم طوال قرنين أو ثلاثة من حياة الحضارة الغربية. وحبى الموسيقى حملني آنذاك على الانتساب الى "المعهد الموسيقي الوطني" (الكونسرفتوار) في بيروت، حتى بدايات الحرب في العام 1975. وحين هاجرت الى فرنسا، حيث أقمت طوال 15 سنة، لم أنقطع عن متابعة دراسة حرة لأصول الموسيقى الكلاسيكية الغربية، ولا عن تعلقي بالموسيقى والاغاني العربية التي تعود الى ما أسماه عصر النهضة الغنائية في مصر وبلاد الشام ما بين مطلع القرن العشرين وعقده الرابع. وفي فرنسا، التي أقمت فيها بين 1984 و1999، اكتشفت مغنين ومغنيات وأغاني وأنواعاً من الموسيقى العربية تعود الى تلك الحقبة، من دون أن تكون متوافرة ومعروفة في لبنان.

-3-

قبل سفري من لبنان كان المسرحي جلال خوري طلب مني تأليف مقطوعات موسيقية لمسرحيته "الرفيق سجعان" و"الراهبة هندية"، فألفتها، فيما كنت أتعلم أصول الموسيقى الشرقية في الكونسرفتوار على يد أستاذ مخضرم هو سمير سبليني. وفي الأثناء كنت أكتشف أغاني مجهولة وغير رائجة استبعتها نجومية مطربي ومطربات الصف الاول، أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الاطرش وفيروز ووديع الصافي وصباح، وجعلتها نسياً منسياً. وهذان الاستبعاد والانذار لأصوات غنائية وأغان لا تقل قيمتها الفنية عن قيمة أغاني النجوم، هما سنة في الغناء كما في الفنون الاخرى ونجومها المكرسين. فأنا لم يصرفني شغفي ببعض أصوات النجوم، كأم كلثوم وعبد الوهاب وليلي مراد وأسمهان، عن اكتشاف غيرهم من المغنين والمغنيات المجهولين، وتذوق أغانيهم. ومن هؤلاء فتحية أحمد وماري جبران ونازك ومحمد خيرى وعباس البلدي وصليبا القطريب (والد سلوى القطريب)، وغيرهم الكثير من المنسيين الذين اندثرت تسجيلات أغانيهم، وأمست خزينة مكنتات غنائية خاصة، أو إذاعية نادراً ما تقوم الاذاعات ببثها. وحين ذهبت قبل 15 سنة الى مصر مقتفياً أثر بعض تسجيلات المطربة فتحية أحمد التي كانت أشهر من كلثوم في أربعينات القرن العشرين وتسمى "مطربة القطرين" (سوريا لبنان)، قال لي بعض من سألتهم: من تكون فتحية أحمد هذه، هل هي راقصة؟ هنا لا بد لي من ذكر مساهمة الصديق المرحوم سمير نصري في اكتشافاتي. فذاقته الغنائية والطربية المغرمة باكتشاف الجميل والقديم وغير المتداول والنادر، والبحث عنه في أسفاره الكثيرة، كانا يزودانني بالكثير من الاغاني المنسية والمندثرة.

-4-

إقامتي في فرنسا وابتعادي من لبنان، وفرا لي ما كان صعباً التعرف اليه في البلدان العربية. ففي باريس يسهل على الهاوي والباحث والمتذوق والمختص أن يتعرف كل منهم على ما يريد ويرغب من موسيقى الشعوب المختلفة وأغانيها، أو ما يسمى هناك بالموسيقى الإثنية. اما ما يمر عليه الزمن ويخرج من التداول

الظرفي والنجمي في ديارنا العربية، فسرعان ما يُنسى ويضيع في غمرة الموجات الجديدة الصاعدة، حيث ليس من مكنتات موسيقية وغنائية تجمع هذا التراث وتحفظه وتضعه في التداول. ثم إن الذائقة الفنية في ثقافتنا غالباً ما تنجح نحو الاجماع والتوحيد في كل حقبة، فتضيق دوائر التذوق الفردي المختلفة غير المتلائمة مع الاجماع العام، وغالباً ما تتحول ما يشبه "التذوق الصوفي" بين جماعات مغلقة، ويصير التراث الغنائي والموسيقي عرضة للنسيان والاندثار.

وفرت لي إقامتي في باريس العاصمة الثقافية العالمية الكبرى، أن أغذي شغفي وميلى الى الاكتشاف، فالاغاني العربية القديمة متوافرة هناك في مكنتات عامة وخاصة وتجارية، من دون أن يقتصر توافرها على النجوم وحدهم. وقد يكون انقطاع بعض الجاليات العربية وأفرادها عن بلدانهم، من بواعث اكتشاف أبناء تلك الجاليات تراث البلدان التي انقطعوا عنها، واستعادته وتذوقه وتداوله في "ديار الغرب". هذا اضافة الى أن لموسيقى الشعوب وأغانيها على اختلافها، نصيباً من التذوق في دوائر المجتمعات الغربية، على خلاف ما هي عليه الحال في مجتمعاتنا التي يضيق فيها التعرف على موسيقى الشعوب وتداولها، إلا في دوائر نخوية قليلة. وهناك أيضاً الكثير من الباحثين والدارسين للموسيقى الاتنية وتراث الشعوب الغنائي، في المعاهد الاكاديمية المتخصصة في الغرب.

هكذا تعرفت في باريس على موسيقى الصعيد المصري وأغانيه، وعلى الموسيقى الشعبية البحرانية وما يسمى "المألوف" التونسي، والموسيقى الجزائرية. أما متابعتي الاساسية فانصبحت على اقتناء النادر وغير المتداول من أغاني مطربي ومطربات حقبة النهضة العربية في مصر وبلاد الشام في العقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين. فأكثرت من رحلات الاكتشاف الى كل من القاهرة والاسكندرية وحلب ودمشق، مقتفياً أثر تسجيلات غنائية خاصة لدى هواة وجامعي أشرطة واسطوانات قديمة، فتجمعت لدي مكتبة لا بأس بها من الاغاني النادرة.

-5-

بعد حرب "النصر الإلهي" في لبنان 2006، نقلت عملي المهني من لبنان الى دبي، حيث اكتشفت على شبكة الانترنت مواقع الكترونية لمننديات تعنى بالموسيقى العربية، فاشتركت فيها، ورحت أتبادل مع أعضائها وهواتها تسجيلات نادرة، فصرت زميلاً مواظباً في هذه المننديات التي تجمع أشخاصاً من بقاع الارض المختلفة والمتباعدة، من دون أن يعرف أحدهم الآخر إلا عبر لقاءات ومبادلات ومحادثات الكترونية، ترقى الى "صدقات إفتراضية" عمادها الهوية والاكتشاف والتداول في شؤون النادر من الاغاني والموسيقي.

في هذا الاطار حصلت على كميات لا يستهان بها من الاغاني العربية القديمة لدى أشخاص من أصول عربية قديمة هاجروا الى الولايات المتحدة الاميركية في بدايات القرن العشرين، فورث عنهم أبناءهم تسجيلات هذه الاغاني، وقاموا بصيانتها وحفظها وتداولها في ما بينهم. هكذا اكتشفت غنى الموسيقى والاغاني العراقية لمطربين ومطربات من الجالية اليهودية في العراق. وكان بين أصدقاء وزملاء المننديات الموسيقية على الشبكة العنكبوتية، مؤرخو موسيقى وأصحاب خبرات وباحثون في الموسيقى الاتنية وأغاني الشعوب العربية.

مرة إتصل بي مؤرخ فرنسي للموسيقى العربية، اسمه فريدريك لاغرانش، ليحرضني على شراء مجموعة تسجيلات موسيقية وغنائية نادرة ومعروفة في مصر باسم مجموعة عبد العزيز العناني، التي طرحها ورثته وابناؤه للبيع، فتقدمت إذاعة اسرائيل وأجرت مفاوضات لشرائها، مما أثار لغطاً في الصحافة المصرية حول الموضوع. وفي العام 2007 قمت بشراء مكتبة العناني الموسيقية والغنائية التي تعتبر ثروة فنية نادرة.

-6-

كان عبد العزيز العناني يعمل مدرساً في القاهرة، ومن هواة جمع التسجيلات الموسيقية والغنائية على اختلافها في زمانه والتي تعود الى بدايات الطباعة على اسطوانات حجرية في العام 1903، وعلى اسطوانات من البلاستيك المضغوط البادئة صناعتها في مطلع الخمسينات، ووارثه الاسطوانة الحجرية المصنعة من الاسفلت، والهشة والقابلة للكسر والتلف، في حال عدم الاعتناء بها وحفظها. وكانت مكتبة العناني تحوي 5 آلاف اسطوانة من هذا النوع الذي كانت تصنعه شركات ألمانية وبريطانية ولبنانية (بيضاфон)، اضافة الى الكثير من التسجيلات القديمة على بكرات الاشرطة القديمة الممغنطة، والتي تحوي تسجيلات حية لحفلات طرب قديمة نادرة.

هذه الثروة الفنية التي يعود الفضل الى هواية العناني الشخصية في جمعها، كان يمكن أن تذهب هباء، إذ لم يتقدم أحد الى شرائها بعد ما طرحها أولاد الرجل وورثته للبيع، سوى الاذاعة الاسرائيلية، فيما كان لبنان غارقاً في حرب "النصر الإلهي" وزهوه. وبفضل صديقي في المننديات الالكترونية، فريدريك لاغرانش، ذهبت من دبي الى القاهرة وأشترت مجموعة العناني، وأضفتها الى مكتبتي الغنائية والموسيقية.

-7-

تعود البدايات الاولى لعصر النهضة في الموسيقى والغناء العربيين في مصر وبلاد الشام، الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومع نشوء صناعة الاسطوانات الحجرية، بدأ العصر الذهبي لهذه النهضة، وظلت الاسطوانة الحجرية الوسيلة الوحيدة للتداول والاستماع، قبل نشوء الاذاعات في ثلاثينات القرن العشرين، فحل الراديو وسيلة للاستماع محل الاسطوانة الحجرية. وفي مطلع الخمسينات بدأ تداول تسجيلات الاشرطة الممغنطة الخاصة بآلات التسجيل الاولى في البيوت، قبل تصنيع اسطوانة البلاستيك المضغوط والبدء في تداولها على نطاق واسع، قبل شيوع الكاسيت في السبعينات.

هذه الحقب المتتالية التي رسخت التداول الجماهيري الواسع للموسيقى والاغاني مع شيوع الراديو، والكاسيت في حقبة لاحقة، أدت الى تحويل الاسطوانات الحجرية والبلاستيكية والاشرطة الممغنطة القديمة من المقتنيات الخاصة النادرة لدى هواة جمع التراث الموسيقي والغنائي لعصر النهضة الذي حوت مكتبة العناني جزءاً منه لا بأس به يعود الى زمن ما قبل البث الاذاعي.

شياً فشيئاً تحول شغفي القديم بهذا التراث الغنائي والموسيقي، شغفاً وهواية في اقتناء النادر والمعرض للنسيان والاندثار. لذا قمت برحلات كثيرة لجمع ما يتوافر من تسجيلات قديمة لدى قدامى هواة ومقتنين في المدن السورية ومصر. وبناء على مسح دقيق مصدره البيانات والكاتالوجات القديمة، صار في إمكاني القول اليوم أن المكتبة التي جمعتها صارت تحوي 95 في المئة من النتاج الموسيقي والغنائي لعصر النهضة في مصر وبلاد الشام.

-8-

هوايتي وشغفي بالموسيقى، والمكتبة التي جمعتها في هذا المجال، وانضمامي الى المنتديات على الشبكة الالكترونية، وعقدي صلات وثيقة بباحثين أجانب في بلدان كثيرة، وأدت لدي فكرة إنشاء مؤسسة متخصصة في مجال جمع النادر من التراث الموسيقي والغنائي العربي، وتصنيفه وتبويبه وحفظه.

هكذا ولدت في أواخر العام 2008 "مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية" (AMAR)، بمساعدة لجنة متخصصة لـ"الشورى والتخطيط". وأعضاء هذه اللجنة هم: جان لومبير (باحث في علم الاجناس البشرية وعلم الموسيقى في متحف الانسان بباريس)، نداء أبو مراد (أستاذ علم الموسيقى والتقاليد في الجامعة الانطونية ببلن)، فرجينيا دنيلسون (باحثة أميركية متخصصة في غناء أم كلثوم)، فريدريك لاغراندج (أستاذ في قسم الدراسات العربية والعبرية في جامعة السوربون الباريسية)، لطفي المرارجي (طبيب تونسي مولع بالموسيقى وحوّل ولعه الى أبحاث أكاديمية)، مايكل فريشكوف (أستاذ موسيقى في الجامعات الاميركية).

رواية كمال كريم قصار - كتابة محمد أبي سمرا

()